الشمال و الغرب الجزائري - محطة للتنقيبات الأثرية إبان الفترة الاستعمارية
بوزياني فاطمة الزهراء - أستاذة بعلم الآثار/جامعة تلمسان.
الملخص: لقد لعبت التنقيبات الأثرية خلال الفترة الاستعمارية دورا كبيرا في الكشف عن المواقع و اللقى الأثرية بالجهة الشمالية و الغربية من الجزائر. و من أشهر مُنَقبي هذه الحقبة نذكر : زيشي و ستيفان غزال و جالوس و آليس. أما تاريخ هذه الحفريات الأثرية فقد امتد ت حتى سنة 1962 م.

Résumé : Les fouilles archéologiques durant la période colonial à joué un rôle très important pour trouvé les sites et objets archéologiques dans le nord et l'ouest de l'Algérie, et les plus célèbre prospecteurs de cette période sont : Zechi et Stephan GSELL et Blanchi et Jallus.

Abstract : The archeologial excavations has played during the colonial period a big importance in the detection of sites and artifacts , especially in the North and West of Algeria. The history of these excavations have lasted to 1962 , with the most famous prospectors like : Zechi and Stephan GSELL and Blanchi and Jallus.

مقدمـة:

لقد شهدت الجزائر حركة واسعة في مجال البحوث و التنقيبات الأثرية ، وقد أسفرت الحفريات الأثرية خلال هذه الفترة إلى اكتشاف العديد من المواقع الأثرية، ووضعت الخريطة الأركيولوجية سنة 1941م، من قبل ستيفان غزالGsell. S ، و خلال هذه الفترة أنجزت عدة بحوث في مجال الآثار و نشرت في بعض المجلات مثل المجلة الإفريقية ومجلة ربيكا للآثار و الإبيغرافيا.

و لكن ما هي أهم التنقيبات الأثرية التي قام بها الباحثون الفرنسيون بشمال و غرب الجزائر؟ وهل تم التوصل إلى نتائج علمية تهدف لتطوير مجال الآثار أو تكشف اللثام عن بعض المعلومات التاريخية المغلوطة بالكتب التاريخية من خلال المكتشفات الفنية و المعمارية المكتشفة بها ؟.

بالنسبة للشمال الجزائري فيبدو أن الآثاريين قد أعطوا اهتماما كبيرا لهذه المنطقة، و عليه فعدد التنقيبات الأثرية بها كان كبيرا مقارنة بالمناطق الأخرى ومن أشهرها نذكرمدينة الجزائر التي تعد من المدن التي يشهد لها التاريخ بماضيها الحافل وآثارها المتنوعة على مر العصور.

فالحفريات التي أقيمت بحي دار العمالة بالقرب من حي باب الزوار، كشفت عن جرّة مملوءة بالمسكوكات والتي كانت تحتوي على158 قطعة نحاسية و 154 قطعة من الرصاص و قد كتب محتواها بالخط البونيقي من اليمين إلى اليسار وجميعها حملت لفظ "إيكوسيم". وهذا دليل على أن الفينيقيين احتلوا هذا المكان ويعني لفظ إيكوسيم : الجزر1.

وأجريت بالعاصمة أبحاث أثرية كثيرة بغية الكشف عن الجزائر القديمة التي بنيت على أنقاضها المدينة الجديدة ومن جملة هؤلاء الباحثين نذكر:كانتينو وليشي Leschi وتنطاسTintas، وغزالGsell .
و في حي دار العمالة أيضا تم الكشف عن قبر فينيقي طوله 2.39م، وعمقه 82سم ووجدت به تميمة مصرية الصنع من الطين نقشت عليها صورة لإله مصري، بالإضافة إلى عثورهم على قطع زجاجية خضراء وحمراء وصفراء وأواني فخارية ارتفاعها 17 سم وقطرها 12 سم.
وفي سنة1952م عُثر على بئر أثرية في حي باب البحرية(باب الجزيرة)، عمقها يزيد عن 14.5م، بها أواني فخارية ترجع لعصور قديمة2 وأمّا في سنة 1940م فعثر في نفس الحي على قطع نقدية معدنية جلها من الحديد وقليل منها من معدن البرونز و يبلغ مجموع القطع 158 قطعة3.
وقد نظمت حفريات أثرية أخرى بموقع قبر الرومية الواقع بين الجزائر وشرشال و الذي يعود إلى الأسرة الملكية النوميدية أو الموريطانية التي أنفقت أموالاً طائلة في سبيل دفن موتاها.
ولقد نفت البحوث الأثرية التي أجريت فيه وجود أيّة غرفة سرية، علمًا أنَّ من بين أعظم المشاكل التاريخية المطروحة حول هذا الضريح قضية تاريخ بنائه حيث اختلف المؤرخون في ذلك، فمنهم من أرجعه إلى الملك يوبا الثاني أو قبله بكثير، ومنهم من يرجح تاريخ بنائه في القرن الخامس أو السادس الميلاد ي4.
وفي هذا الموقع أجريت الحفريات لأول مرّة تحت إشراف أدريان بربروجير Adrien Berbarugger خلال السنوات 1865 م-1866م.تحت نفقة الإمبراطور نابليون الثالث، ودامت هذه الحفائر قرابة أربعة أشهر، ومن النتائج الهامة التي توصلت إليها ظهور دهليز واسع وغرفتين متوسطتين5، والحفرية صوبت تلك الأخطاء التاريخية المتعلقة بالغرفة السرية،وهذا هو الهدف المرجو في حقيقة الأمر من الحفائر وهو التحقيق في المعطيات التاريخية وتصحيحها .
أما بالنسبة لمدينة شرشال فلطالما اعتبرت من المدن الزاخرة بالآثار مما أدى إلى تنظيم حفريات عديدة في هذا الموقع الأثري الهام.
فعملية التنقيب بالمسرح الروماني أدّت إلى الكشف عن بقايا جدار ، إلى جانب الأعمدة والتيجان6.
وفي سنة 1933م قام جون غليمات M.Jean Glémat بحفريات كثيرة ابتدأت من غرب الولاية لتمتد إلى شرقها ،ومن جملة ما توصل إليه هذا الباحث عثوره على أطلال منزل يعود تاريخ بنائه إلى القرن 15 م والذي كان مزينًا بفسيفساء اعتبرها من أجمل اللوحات الفسيفسائية ،وعلى بعد هذا المنزل بأربعة أو خمسة أمتار7 شمالاً اكتشفت آثار أخرى8 .و هذا يدل على ثراء وضخامة هذه المنطقة من ناحية الممتلكات الثقافية .

وفيما يخص حفرية 1903م فقد أدت للكشف عن لقى أثرية كثيرة، منها:

- فخار رمادي .
- برونز.
- لوحات فسيفسائية تحمل عناصر زخرفية هندسية تضم موضوعات مختلفة9.و فيما يتعلق بالحفريات التي أجراها م.غلينات M.Glénat بشرشال سنة 1919م،فكانت بموقعين أثريين مختلفين و من بينهما المسرح، حيث قام فيه بتصنيف ووضع الكثير من الحجارة ذات الأشكال المختلفة ، والتي كانت متناثرة في كل أرجاء الموقع الأثري خلال تنقيبه ،وهذه الحفريات لم تكشف إلاّ عن بعض الشقف ذات النقوش ،ولم يعثر خلال تنقيبه على أية كتابة منقوشة10.إلى جانب حفريات كثيرة كشفت عن تماثيل رخامية لإلهة رومانية11.

وتعود أقدم حفرية في تيبازة إلى سنة 1892 م 12 وكان ستيفان غزال من أشهر الأثريين الذين نقبوا في تيبازة حيث دامت الحفريات التي أدارها أكثر من أربعين سنة ،كما أقيمت حفرية أخرى من طرف م . برغون M.Bergon سنة 1935م و الذي كشف عن لوحة فسيفسائية يبلغ طولها 10 م وعرضها5 م 13.

وقد قام غلينات M.Glénat بحفريات قرب الساحة العامة بتيبازة ،وفيها تم نزع الركام الذي كان يوجد بالقرب من الأطلال الواقعة بين المكان العام والمنارة14، إلى جانب مارسيل كريستوفلMarcel Christofle الذي قام بالعديد من الحفريات في تيبازة15.كما أن الكولونيل براداز baradez تابع العديد من الحفريات بهذه المنطقة الزاخرة بالمعالم16.

لقد شهدت مدن غرب الجزائر العديد من الحفريات منها مدينة تلمسان، و من أهم المواقع بها نجد وادي المويلح الذي يقع على بعد بضع كيلومترات شمال مدينة مغنية التابعة لولاية تلمسان حاليا.

ففي سنة 1899م،اكتشف بول بالاري (عالم في ما قبل التاريخ والبيئة) ما بين سنة 1907م-1910م مجموعة ملاجئ قريبة من الطريق،أما أوغوست باربن August Barbin، فقد أجرى عدّة تنقيبات نتجت عنها، أكثر من ثلاثة آلاف أداة،منها ما هو موجود بمتحف الباردو بالجزائر العاصمة17.

وحفرية سيقا سنة 1937م المقامة من طرف غريمال Grimal والتي كشفت عن مجموعة من النقود والفخار والمصابيح الزيتية ، بالإضافة إلى معلم أثري وقناة ومخزن للمياه18 .

وبمنطقة رشقون اكتشف الباحث ج. فويلمان G.Vuillement سنة 1955م حيًا بونيقيًا ومجموعة مقابر و لقى أثرية أخرى.وفي نفس المنطقة اكتشف لقلاي Leglayمجموعة من الفخار والحلي و الأسلحة19 .

ونضيف إلى الحفريات السابقة الأبحاث التي قام بها فويمو في نهاية الخمسينات وبداية الستينات20.

وبالنسبة لألتافا Altava (أولاد الميمون حاليًا) فهي عبارة عن دائرة تابعة لولاية تلمسان،حيث تنتشر بها آثار قديمة .
وبيّنت الحفريات الجزئية التي أجريت بها أن الموقع يحتوي على بقايا أثرية ، إضافة إلى وجود ثلاثة طبقات أثرية متمايزة من حيث محتوياتها.فالفخار المكتشف بها عُدَّ من أجمل الفخار الموجود بمنطقة ألتافا حيث صنع من عجينة ناعمة ورفيعة الصنع وهي مطلية بطلاء مزجج ذي لون أحمر معدني ، إضافة إلى وجود نقوش بارزة عليه21.
و باعتبار أن ولاية وهران من بين أهم مدن الغرب التي تشتهر بمواقعها الأثرية فقد شهدت حركة واسعة في ميدان الحفريات الأثرية حيث تم اكتشاف مجموعة مختلفة من الأدوات المَكْرُوليثية (القزمية) وشفرات ذات رؤوس ومكاشط، أما الأزاميل والمناقش والأدوات البسيطة التي تمّ العثور عليها فهي من العظم وهذه الأدرات كانت مطابقة لما تم العثور عليه من أدوات تعود إلى الحضارة القفصية ولكن حجمها كان صغيرا22.
وفي وهران دائما قام العالمان فويلمانG.Vuillement وتنطاس P.Tintas بحفريات أثرية بمنطقة الأندلس من سنة 1952م إلى1953م 23.
وبقرية مرسى مَداخ التابعة لوهران نُظمت عدة حفائر أثرية بموافقة من طرف ل. ليشيL. Leschi.24
وبالنسبة لمدينة غليزان فهي تضم العديد من الآثار ،التي لازالت بحاجة ماسة لمن يدرسها دراسة مستفيضة، فمن خلال حفريات سنة 1885م على يد الكولونيل مرسيي Mercier تم التوصل لحقائق عظيمة منها :تعرض المدينة للحرق ثلاثة مرات وتجديدها في كل مرة25
- الكشف عن بقايا الجدران والأبواب مع ثلاثة أسس، تتخلل كل اثنتين منهما طبقة.
- حطام بسمك 1م- 1.50 م.
- مجموعة جرّار، ضمت إحداها كميّة من القمح .
أمّا بوغوينا Bougiunat فقد حصل على مدّقٍ ذو تكسية برونزية ، بحفرية هيليل (Hillil) وصليب زيّن إحدى الأواني المنزلية التي يرجع تاريخها إلى الفترة الرومانية المسيحية26.
وبالقرب من المدينة نجد منطقة مينا الواقعة بجانب طريق أولاد الأبطال ،التي حظيت بتنقيبات كثيرة ،خلال الفترة الحديثة والقديمة27.

خاتمة:

هذه الحفريات الأثرية إبان الفترة الاستعمارية بالشمال و الغرب الجزائري لم تكن إلا جزءًا يسيرا لما تحفل به المناطق الجزائرية والمواقع المنقبة التي كشفت كل منها عن آثار بينت أهميتها، وصححت البعض ممّا قيل وكتب حولها ، في وقتٍ تبقى فيه هذه المناطق بحاجة ماسة إلى أعمال تنقيب تكشف النقاب عنها .

الهوامش:

) عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ المدن الثلاث الجزائر ،لمدية،مليانة** ، ط: 02، مطبعة صاري بدر الدين،الجزائر ،1972،ص13.

)علي علي خوجة،**فحص الجزائر وجنائنه، القصبة الهندسة المعمارية وتعمير المدن،** ط:01،كوميدي بروكسال،بلجيكا،1985،ص51.

)عبد الرحمن الجيلالي ،مرجع سابق،ص100،98.

4) منير بوشناقي ،**الضريح الملكي الموريطاني،** تر:عبدالحميد حاجيات،المطبعة الرسمية ،الجزائر ، 1970،ص13،5

5) منير بوشناقي ، مرجع سابق،ص13،6.

6)Stéphane Gsell ,**Cherchel antique Iol caesarea,Societé d'éditions les belles lettres**, Paris ,France,1926,p104.

7) M.Jounnart ,**Rapport sur les fouille de Cherchel (1902-1903)**, v : 47,Revue africaine, ,1903,pp99,129.

8) Ibid ,pp100,129.

9)A.Ballut ,**Rapport sur les travaux de fouille et de restauration exécutés en 1919**, v : 61,Revue africaine, ,1920,P302-305.

10) Marcel Christofle , **Rapport sur les travaux de fouille et consolidations effectuées en 1933-1934-1935-1936par le service des monuments historiques de l'Algérie** ,F.Fontana,Alger,1938,p07,08.

11)محمد خير أورفه لي ، **المظاهر المعمارية في النحت على انصاب شرشال(قيصرية)،** ع:02 مجلة الدراسات الأثرية ، معهد الآثار، الجزائر،1992،ص42.

12)J. Baradez ,**nouvelles fouilles à Tipasa dans une nécropole païenne** :07 ,2eme semestre, Bulletin du service des antiquités Archéologie – Epigraphie ,Algérie , 1957 , p 161 .

13) Marcel Christofle, Op-cit ,P74.

- Mohammed Chirine coudi, **Dictionnaire Ibn sina Français Arabe**, bibliothèque d'édition et de diffusion el sahi ,Egypt. ,2002, P234.

14) Marcel Christofle, Op-cit ,P74.

15)Albert Ballu , **Rapport sur les travaux de fouilles et de consolidations effectués en1926**,gouvernement général de l'Algérie,1927,p 07.

16)j. Lassus **, l'archéologie algérienne en 1956** , T :7 , 1 er semestre **,** Bulletin du service des antiquités Archéologie – Epigraphie ,Algérie,1957,p133.

17)ليونيل بالو ،**شمال إفريقيا قبل التاريخ**،تر:محمد الصغير غانم،دار المعارف للطباعة والنشر،تونس،2001،ص35.

18) Stéphane GSELL, ***Atlas Archéologique de L'Algérie*** , 1902, p82.

19)Ibid ,P82.

20)محمد الصغير غانم،**معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر**،دار الهدى ،الجزائر،2003،ص192.

21)محمد البشير شنيتي ،**الجزائر في ظلال الاحتلال الروماني بحث في منظومة التحكم العسكري (اليمس الموريطاني)ومقاومة المور،** ج:01،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر ،ص248،235.

22) ليوناردو كوثريل، مرجع سابق ، ص739.

23) Stephane GSELL, Op-cit,p53.

24)G. Vuillement, **fouilles puniques à Mersa Madakh,** T :2 ,2eme semestre**,** Bulletin du service des antiquités Archéologie – Epigraphie ,Algérie,1954,p300.

25) Bouzine Djilali, ***Monographie de la commune D'El Matmar***,édition EX. Clichant ,2008,p15.

26) Ibid,p 15.

27)P.Cadenat ,**rapport** ***sur quelques lampes antiques de l'EST oranais,*** T:07,1977-1979, Bulletin d'Archéologie Algérienne ,entreprise nationale des Arts graphiques, Algérie ,1986,pp 301,315.